اَلْمَزْمُورُ السَّادِسُ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ عَلَى ذَوَاتِ الأَوْتَارِ عَلَى الْقَرَارِ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ
1يَا رَبُّ، لاَ تُوَبِّخْنِي بِغَضَبِكَ، وَلاَ تُؤَدِّبْنِي بِغَيْظِكَ. 2ارْحَمْنِي يَا رَبُّ لأَنِّي ضَعِيفٌ.
اشْفِنِي يَا رَبُّ لأَنَّ عِظَامِي قَدْ رَجَفَتْ، 3وَنَفْسِي قَدِ ارْتَاعَتْ جِدّاً. وَأَنْتَ يَا رَبُّ فَحَتَّى مَتَى!
4عُدْ يَا رَبُّ. نَجِّ نَفْسِي. خَلِّصْنِي مِنْ أَجْلِ رَحْمَتِكَ. 5لأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ. فِي
الْهَاوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟ 6تَعِبْتُ فِي تَنَهُّدِي. أُعَوِّمُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ سَرِيرِي بِدُمُوعِي. أُذَوِّبُ فِرَاشِي.
7سَاخَتْ مِنَ الْغَمِّ عَيْنِي. شَاخَتْ مِنْ كُلِّ مُضَايِقِيَّ.
8اُبْعُدُوا عَنِّي يَا جَمِيعَ فَاعِلِي الإِثْمِ لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ بُكَائِي. 9سَمِعَ الرَّبُّ
تَضَرُّعِي. الرَّبُّ يَقْبَلُ صَلاَتِي. 10جَمِيعُ أَعْدَائِي يُخْزَوْنَ وَيَرْتَاعُونَ جِدّاً. يَعُودُونَ وَيُخْزَوْنَ
بَغْتَةً.

أُعوِّم سريري بدموعي

هناك سبعة مزامير تُسمَّى مزامير التوبة (هي مزامير 6، 32، 38، 51، 102، 130، 143)، لأنها توضِّح الحزن والتذلل وكراهية الخطية، وهي علامة الروح المنكسر الذي يرجع لله تائباً معترفاً بالخطايا. وهذا المزمور هو أوّلها، أما ثانيها فهو مزمور 32 الذي يبدأ بالقول: «طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته.. أعترف لك بخطيتي ولا أكتم إثمي». وثالثها مزمور 38 الذي يقول فيه المرنم: «لأن آثامي قد طمَت فوق رأسي، كحملٍ ثقيل أثقل مما أحتمل». ورابعها مزمور 51 المشهور الذي يقول مطلعه: «ارحمني يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ». وخامسها مزمور 102 الذي يقول فيه المرنم: «لا تحجب وجهك عني في يوم ضيقي. أَمِل إليَّ أذنك في يوم أدعوك. استجب لي سريعاً». وسادسها مزمور 130 الذي يقول فيه المرنم: «إن كنتَ تراقب الآثام يا رب يا سيد، فمَن يقف؟». وسابعها مزمور 143 الذي يقول فيه المرنم: «لا تدخل في المحاكمة مع عبدك، فإنه لن يتبرَّر قدامك حي».

ويمكن تلخيص كل مزمور من مزامير التوبة بالقول: «من يكتم خطاياه لا ينجح، ومن يقرُّ بها ويتركها يُرحم» (أم 28: 13) وبالقول: «إن قُلنا إنه ليس لنا خطية نُضل أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (1يو 1: 8، 9).

يوضح المزمور الاختبار الأول الأساسي الذي يجب أن يختبره كل إنسان قبل أن ينال رضى الرب. إنه اختبار التوبة والرجوع للرب. وقد طلب القديس أغسطينوس في أثناء مرضه الأخير أن يكتبوا له مزامير التوبة السبعة ويضعوها على حائط غرفة نومه في مواجهته ليتمكن من قراءتها كلها. وكان يقول «رأس الحكمة هو أن تعرف نفسك: إنك خاطئ». فمزمور التوبة يردِّده الخاطئ الذي يتوب، كما يردده المؤمن الذي يطلب من الله أن يغسله كل يوم من خطيته. وقال مارتن لوثر: «سأظل طول حياتي شحّاذاً أستجدي رحمة الله». وهذا يعني أن كل إنسان يجب أن يردد مزمور التوبة وهو يرجع إلى الرب، كما يجب أن يردده كل من رجع إلى الله، يطلب منه اغتسالاً يومياً.

إننا نعيش في عالم خاطئ، والظروف من حولنا تدفعنا للخطأ، لأن الخطية محيطة بنا بسهولة. كما أن لكل واحد منا نقاط ضعفه الشخصية. فإن كنا لا نرتكب الخطأ بقصدٍ وبسوء نيّة، سنجد الأخطاء من حولنا تتناثر على ثوب خلاصنا الأبيض، فنحتاج إلى اغتسال يومي. هناك التوبة الأولى التي فيها يفتح الإنسان قلبه للرب، ويعلن انتماءه له، فيصير في المسيح خليقة جديدة. ولكن هناك التوبة اليومية المستمرة لنضمن لنفوسنا حياة نقية تُرضى الرب. هناك التطهير الأول عندما يغفر الله لنا ذنوبنا ويكفر عنّا سيئاتنا، ويُنعم علينا بالتبني. وهناك أيضاً الاحتياج اليومي إلى «غسل أرجلنا» فإن «الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله» (يو 13: 10). لأن سيرنا في برية الحياة يعرّضنا للكثير من الأوساخ، ولذلك نحتاج دائماً كمؤمنين إلى صلاة توبة.

وفي مزمور التوبة هذا يتحدث داود عن تأديب الرب له بسبب سقوطه، الأمر الذي ألجأه للتوبة. ويقول الإنجيل: «الذي يحبه الرب يؤدِّبه، ويجلد كل ابن يقبله» (عب 12: 6).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – الرب يؤدِّب المخطئ (آية 1)

ثانياً – المخطئ يستغيث من التأديب (آيات 2–7)

ثالثاً – الرب يستجيب المستغيث التائب (آيات 8–10)

أولاً ـ الرب يؤدب المخطئ

(آية 1)

يعترف داود للرب بأنه أخطأ، ويعلن أنه يستحق التوبيخ. لقد ارتكب خطأً كان يجب ألاّ يرتكبه، فيطلب من الرب أن يطيل أناته عليه، ولا يوبّخه وهو في حالة الغضب، ولا يؤدّبه وهو في حالة الغيظ. فقال: «يا رب، لا توبّخني بغضبك، ولا تؤدّبني بغيظك».

لا شك أن داود كأبٍ وبّخ أولاده وأدّبهم عندما أخطأوا وهو في حالة غضب عليهم وغيظٍ منهم. ولم يعطِ ذلك التأديب الغاضب أفضل النتائج، لأن داود في حالة غضبه لم يكن قادراً على إصلاح الخطأ، بل إنه أثار عناد أولاده أكثر. وأدرك داود أن الله هو المربي الأفضل، فقال له: «يا رب، أنا أستحقّ التوبيخ والتأديب، لكن لا توبّخني بغضبك، ولا تؤدّبني بغيظك. أنت تعرف جبلتي. أنت توبّخني وتؤدبني لا لتسحقني ولا لتدمِّرني، بل لتُصلح من أمري. وتأديبك لي لا يدوم، بل هو وقتي، وعندما تقتضي الضرورة. فأنت تؤدبني لتخلق مني الوعاء الذي ترضى عليه ويَحسُن في عينيك. وكما أن الريح لازم لينقي الحنطة من التبن، هكذا تحتاج نفسي إلى التأديب.. أنا لا أرفض التأديب، لكني أطلب الرحمة فيه.. «أدِّبني يا رب ولكن بالحق، لا بغضبك لئلا تفنيني» (إر 10: 24). أنت تعمل الخير كله. أنت تُسقِط من حسابك خطاياي، وتطرح في أعماق البحر خطاياي فلا تعود تذكر تعدياتي (مي 7: 19 وعب 8: 12). اعترفتُ لك بها، ورفعتُ قلبي إليك تائباً، وأنت قبلتَ توبتي وغفرت لي وتبدأ معي دوماً من جديد. قال مارتن لوثر: «يتوسّل المرنم إلى الله أن يكون التوبيخ

والتأديب مصحوباً بالرحمة، لا بالغضب. وهذا يعلّمنا أن عند الله عصوين للتأديب، إحداهما للتأديب بالرحمة والأخرى للتأديب بالغضب».

هذه الآية الأولى تعلّم الآباء كيف يربّون أولادهم، فلا يعاقبونهم وهم غاضبون. كما أنها تكشف لنا صفة عظيمة في إلهنا، هي أنه يؤدبنا ويقوّمنا في حب حقيقي، ليُصلح من أمرنا، لنكون أواني أكثر صلاحية لتأدية خدمته ولتحقيق مشيئته.

ثانياً ـ المخطئ يستغيث من التأديب

(آيات 2-7)

يستغيث داود من الغضب الإلهي الذي حلّ به بسبب خطيته، ويذكر أسباب هذه الاستغاثة.

1 ـ يستغيث لأنه ضعيف: «ارحمني يا رب لأني ضعيف» (آية 2أ). وكأنه يقول: إن كنتَ توقّع عليَّ العقاب الذي أستحقه فسأهلك. إذاً يا رب أنا ألجأ إلى مراحمك على شخصي الضعيف. والأغلب أن الضعيف يلجأ للبكاء، ودموع توبتنا تجعل إلهنا يتعطف علينا برحمته، كما تعطف السامري الصالح على الجريح الضعيف.

ولا يطلب داود أن يرفع عنه الله غضبه فقط، بل يطلب أن يرفع عنه أيضاً سبب ذلك الغضب، الذي هو خطيته الناتجة عن ضعفه. وعندما نعترف بضعفنا وخطايانا تدركنا رحمته دائماً.

2 ـ يستغيث لأنه انكسر: «اشفني يا رب لأن عظامي قد رجفت، ونفسي قد ارتاعت جداً. وأنت يا رب فحتى متى؟» (آيتا 2ب، 3). يبدو أن التأديب الإلهي مسَّ جسده، فأصابه المرض الذي جعل عظامه ترتجف. وارتكاب الخطية يرجف أعماق الإنسان.. كما أن هذا التأديب جعله يرتعب خوفاً من وقوع المزيد من التأديب عليه، فارتاعت نفسه.. كما أن إحساسه بالذنب جعله يرتعب أكثر لأنه فقد رضا الله عليه، فضاعت منه بهجة خلاصه. وكأن المرنم يقول: «إن كنتَ تراقب الآثام يا رب، يا سيد، فمن يقف أمامك؟.. نعم أنا أخطأت، ولكني أجيء إليك الآن في حالة انكسار جسدي، وأنت الذي تقبل توبتي».

يقول المرنم: «حتى متى؟». فهناك زمان حدده الله لكل من يحمل صليباً. حدد لبني إسرائيل 430 سنة في مصر، وسبعين في بابل، وحدَّد ليوسف نحو 13 سنة في سجن فرعون، وحدَّد لملاك كنيسة سميرنا ضيق عشرة أيام (رؤ 2: 10). ولا بد أن ينتهي ضيق كل من يلجأ إلى الله تائباً.

3 ـ يستغيث لأن الله مخلّصه: «عُدْ يا رب. نجِّ نفسي. خلّصني من أجل رحمتك» (آية 4). أحدثت الخطية فجوةً بين المرنم والله، وهو يطلب أن يعود إليه الأُنس بالله، كما قال: «لا تطرحني من قدَّام وجهك، وروحك القدوس لا تنزعه منّي، رُدّ لي بهجة خلاصك» (مز 51: 11، 12).

والمرنم يطلب النجاة من عقوبة الخطية، ومن نتائجها السيئة عليه، لأنه لا مخلّص إلا هو. وكما كان بُعده عن الله سبب بؤسه، يكون رجوعه إلى الله سبب خلاصه. وعندما نعود إلى الله تائبين، يعود الله إلينا منجِّياً.

«خلّصني من أجل رحمتك» ونحن في نور الصليب ندرك معنى هذه الآية بأكثر عمق «لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلّصة لجميع الناس.. منتظرين .. مخلّصنا يسوع المسيح، الذي بذل نفسه لأجلنا، لكي يفدينا من كل إثم» (تي 2: 11-14).

4 - يستغيث لأنه يعتقد أن الموتى لا يسبّحون الرب: «لأنه ليس في الموت ذكرك. في الهاوية من يحمدك؟» (آية 5). هذا يعني أن المرنم يعتقد أنه إذا أماته الرب ودُفن فلن يحمده في القبر. أما إن رحمه ومنحه حياة طويلة فسيسبّحه هنا على الأرض دائماً وأبداً. ولما كان المرنم يريد أن يُعلن خلاص الرب، ويحمده ليلاً ونهاراً، فإنه يطلب من الرب أن يطيل حياته.

أو لعل المرنم خاف أن يموت في خطيته فيمضي إلى جحيم أبدي، فطلب من الله أن ينجي نفسه وأن يفتديه ويخلّصه من الجحيم، من أجل رحمته، ليتمكن من تقديم التسبيح لله في الأرض وعندما ينتقل إلى حضرته في السماء.

5 - يستغيث لأنه تائب: «تعبتُ في تنهُّدي. أُعوّم كل ليلة سريري بدموعي. أذوّب فراشي. ساخت من الغم عيني. شاخت من كل مضايقيَّ» (آيتا 6، 7). والقول «ساخت عيني» يعني أنها تآكلت من كثرة البكاء، كما يأكل العثُّ الثياب. فكم تنهَّد المرنم حزيناً على خطيته، وكان يعوّم كل ليلة سريره بدموعه في بكاء مر، كما خرج بطرس إلى الخارج وبكى بكاءً مُراً لأنه أنكر المسيح (لو 22: 62). صحيحٌ إن الخطية لا تستحق الثمن المدفوع فيها، فعلى كل من يخطئ أن يرجع إلى الله تائباً بأسرع ما يستطيع.

وأقدّم ثلاث ملاحظات عن الحزن على الخطية:

(أ) ليس المهم كمية الحزن بل نوعه: قد لا تكون لنا كمية دموع داود الذي عوّم كل ليلة سريره بدموعه. وقد لا تكون لنا رأس مليئة بالماء كما تمنّى النبي إرميا فقال: «يا ليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموع فأبكي نهاراً وليلاً» (إر 9: 1). وقد لا نبكي بكاءً مُراً كما فعل بطرس. فليست الكمية هي المطلوبة، بل نوع الحزن الصادق. إن التعبير العميق يكفي.

(ب) ليس المطلوب أن نُظهر حزننا أمام الناس، بل أن يكون حزننا صادقاً. لسنا في حاجة أن نقول للآخرين إننا مخطئون محتاجون لغفران الله، لكن نحتاج أن نكون صادقين، فقد يكون إناءٌ مليئاً بالماء دون أن تنضح منه قطرة، وقد تكون قلوبنا مليئة بالدموع على خطيتنا دون أن تظهر دموعنا للآخرين.

(ج) ليس المطلوب مدة الحزن، بل المطلوب هو إخلاصنا فيه. هناك أسطورة قديمة تقول إنه بعد أن ارتكب داود خطيته المشهورة، أخذ يبكي فسقطت دمعتان من دموعه على الأرض، فنبتت شجرتان: شجرة «الصفصاف المتهدّل» التي ترمز إلى حزن المؤمن الباكي أمام الله، وشجرة «البَخور» التي ترمز لإيمان التائب ومحبته لله، لأن الذي يغفر له الله الكثير يحب الله كثيراً، لأنه يشعر بفضل محبة الله له.

ثالثاً ـ الرب يستجيب المستغيث التائب

(آيات 8-10)

في الجزء الأخير من المزمور نرى فكرتين:

1 - عدّل المرنم موقفه من أعدائه: «ابعُدوا عني يا جميع فاعلي الإثم، لأن الرب قد سمع صوت بكائي. سمع الرب تضرُّعي. الرب يقبل صلاتي» (آيتا 8، 9). استجاب الله لتوبة داود فعدّل موقفه مع أعدائه الذين قادوه إلى ارتكاب الخطأ. ولا عجب، فإن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة (1كو 15: 33).

سار المرنم التائب في طريق الخطاة، ولكن بعد توبته وغفران خطاياه ابتعد عنهم وعن طريقهم، فلا شركة للنور مع الظلمة. وبعد أن أصلح موقفه مع الله أصلح الله موقف داود مع أعدائه. فإن كان هناك ما يُبكيك، وإن كنت تطلب من الرب أن يمسح دموعك، فأَصلِح أولاً ما بينك وبين الرب، وعدِّل مواقفك معه، فتتعدَّل مواقفك مع الذين يضرّونك. إن معركتنا ليست أساساً مع البشر من خارجنا، بل مع نفوسنا من داخلنا، فعندما نطرد الخطية من داخلنا بالاعتراف والتوبة، تتعدَّل مواقفنا مع الآخرين.

2 - نجا المرنم من أعدائه: «جميع أعدائي يُخزَون ويرتاعون جداً. يعودون ويُخزَون بغتةً» (آية 10). لقد تحقق معه القول: «إذا أرضت الربَّ طرقُ إنسان جعل أعداءه أيضاً يسالمونه» (أم 16: 7).

إن أفضل علاج للتخلُّص من المعاشرات الردية هو أن نبتعد عنها. «باعِدِ رِجلك عن الشر» (أم 4: 27). لا يكفي أن نبكي على خطايانا، بل يجب أن نبتعد عنها وعن مسبِّباتها، فالخطية والنعمة لا يجتمعان.

اَلْمَزْمُورُ السَّابِعُ

شَجَوِيَّةٌ لِدَاوُدَ غَنَّاهَا لِلرَّبِّ بِسَبَبِ كَلاَمِ كُوشَ الْبِنْيَامِينِيِّ

1يَا رَبُّ إِلَهِي، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. خَلِّصْنِي مِنْ كُلِّ الَّذِينَ يَطْرُدُونَنِي وَنَجِّنِي، 2لِئَلاَّ يَفْتَرِسَ كَأَسَدٍ نَفْسِي هَاشِماً إِيَّاهَا وَلاَ مُنْقِذَ.

3يَا رَبُّ إِلَهِي، إِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ هَذَا. إِنْ وُجِدَ ظُلْمٌ فِي يَدَيَّ. 4إِنْ كَافَأْتُ مُسَالِمِي شَرّاً، وَسَلَبْتُ مُضَايِقِي بِلاَ سَبَبٍ، 5فَلْيُطَارِدْ عَدُوٌّ نَفْسِي وَلْيُدْرِكْهَا، وَلْيَدُسْ إِلَى الأَرْضِ حَيَاتِي، وَلْيَحُطَّ إِلَى التُّرَابِ مَجْدِي. سِلاَهْ.

6قُمْ يَا رَبُّ بِغَضَبِكَ. ارْتَفِعْ عَلَى سَخَطِ مُضَايِقِيَّ وَانْتَبِهْ لِي. بِالْحَقِّ أَوْصَيْتَ. 7وَمَجْمَعُ الْقَبَائِلِ يُحِيطُ بِكَ، فَعُدْ فَوْقَهَا إِلَى الْعُلَى. 8الرَّبُّ يَدِينُ الشُّعُوبَ. اقْضِ لِي يَا رَبُّ كَحَقِّي، وَمِثْلَ كَمَالِي الَّذِي فِيَّ. 9لِيَنْتَهِ شَرُّ الأَشْرَارِ، وَثَبِّتِ الصِّدِّيقَ. فَإِنَّ فَاحِصَ الْقُلُوبِ وَالْكُلَى اللهُ الْبَارُّ. 10تُرْسِي عِنْدَ اللهِ مُخَلِّصُ مُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ.

11اَللهُ قَاضٍ عَادِلٌ، وَإِلَهٌ يَسْخَطُ فِي كُلِّ يَوْمٍ. 12إِنْ لَمْ يَرْجِعْ يُحَدِّدْ سَيْفَهُ. مَدَّ قَوْسَهُ وَهَيَّأَهَا، 13وَسَدَّدَ نَحْوَهُ آلَةَ الْمَوْتِ. يَجْعَلُ سِهَامَهُ مُلْتَهِبَةً.

14هُوَذَا يَمْخَضُ بِالإِثْمِ. حَمَلَ تَعَباً وَوَلَدَ كَذِباً. 15كَرَا جُبّاً. حَفَرَهُ فَسَقَطَ فِي الْهُوَّةِ الَّتِي صَنَعَ. 16يَرْجِعُ تَعَبُهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَعَلَى هَامَتِهِ يَهْبِطُ ظُلْمُهُ. 17أَحْمَدُ الرَّبَّ حَسَبَ بِرِّهِ، وَأُرَنِّمُ لاِسْمِ الرَّبِّ الْعَلِيِّ.

ترسي عند الله

هناك سبعة مزامير أطلق عليها القديس أغسطينوس اسم «مزامير الطريد» (هي 7، 34، 52، 54، 56، 57، 142) كتبها داود أثناء هروبه من مطاردات الملك شاول له، متنقِّلاً من بلد إلى بلد، ومن كهف إلى كهف، وحتى إلى بلاد الفلسطينيين.

عنوان هذا المزمور «شجوّية لداود غنّاها للرب». و«شجوية» معناها ترتيلة حزن أو شجوى. وهو نفس عنوان «صلاة لحبقوق النبي على الشجوية» (حب 3: 1). أليس غريباً أن المؤمن «يغني» للرب «شجوية»؟ الحقيقة أن كل متاعب العالم لا يمكن أن تحرم المؤمن من الترنيم، لأن منابع حياته ليست من ظروفه، لكنها من الرب. إن كل آلام الحياة لا تحرم المؤمن مطلقاً من أن يغني ويرتل للرب، لأنه يختبر دائماً أن الله معه وسط الأتون!

رنم داود هذه الشجوية لأن كوش البنياميني وشى به إلى الملك شاول، وقال إن داود يتآمر ليقتل الملك (1صم 22: 8). وبهذه الوشاية الكاذبة زادت ثورة غضب الملك المجنون على داود. ونحن لا نعرف شيئاً عن كوش إلا أنه من سبط بنيامين، وغالباً يكون أحد أقرباء شاول. وبسبب هذه الوشاية خرج الملك بجيشه ليقبض على داود البريء ويقتله، فرفع

داود صلاته في هذه الشجوية متنوِّعة الموضوعات، فمن الحديث عن قمة النصرة، إلى الحديث عن الألـم المُـرّ. وهـي نموذج لاختبارات المؤمن المتنوِّعة.

ونجد فرقاً كبيراً بين بداية المزمور السابع ونهايته. ففي مطلعه تبدو عدالة الله غامضة، وفي نهايتـه نراهـا فاعلـة وقوية. في بدايته يبدو الشرير مفترياً غالباً، وفي نهايته نراه ضعيفاً مهزوماً. في بدايته نرى المؤمن باكياً صارخاً، وفـي نهايته نراه هاتفاً منتصراً. وهذا ما يحدث دوماً مع الذين يحبون الله. يبدو لنا أحياناً كأن عدالة الله قـد غابـت، فانتصـر الشرير وانسحق المؤمن. ولكن المؤمن الحقيقي في النهاية ينتصر دائماً، فيحمد الرب على برِّه وعدله، ويرنِّم لاسم الـرب العلي، لأن كل آلةٍ صُوِّرت ضده لا تنجح، وهو يحكم على كل لسان يقيم قضيَّةً ضده (إش 54: 17).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – خطورة موقف المرنم (آيتا 1، 2)

ثانياً – المرنم يعلن براءته (آيات 3–5)

ثالثاً – المرنم يطلب النجدة من الله (آيات 6–10)

رابعاً – المرنم يخاطب أعداءه (آيات 11–17)

أولاً ـ خطورة موقف المرنم

(آيتا 1، 2)

يبدأ المرنم مزموره بالاتجاه إلى الله قائلاً: «يا رب إلهي عليك توكلتُ» (آية 1أ) فيتَّجه إلى سيد حياته، ويناديه: «يـا رب». ويدعوه: «إلهي». فهناك صلة أُنس شخصية حميمة بينهما. الرب إلهه، وهو الخادم والتابع والمنتمي لهذا الإله. لقد سلّم حياته للرب، واتّخذه سيداً وقائداً له، فأصبح مِلكاً لله، وشعاره: «الإله الذي أنا له، والذي أعبده» (أع 27: 23). ولمـا كانت هذه العلاقة الشخصية عميقة وواثقة، فإنه يلقي بكل نفسه وبكل همومه على الرب إلهه، ويقول له «عليك توكلـت». «مُلقين كل همِّكم عليه، لأنه هو يعتني بكم» (1بط 5: 7). ولهذا يصرخ إليه: «خلِّصني» من الوشـاية الكاذبـة. ويعلـن براءته منها. ويوضح داود خطورة موقفه، فيقول: «خلِّصني من كل الذين يطردونني، ونجِّني لئلا يفترس كأسـدٍ نفسـي، هاشماً إياها ولا منقذ» (آية 1ب، 2).

1 ـ أعداؤه كثيرون: كأنهم فرقة كاملة «لجئون» فيقول: «كل الذين يطردونني». أينما يتوجّه يحيطون به ويهجمون عليه.

2 ـ عدوُّه جبار خبيث: «يفترس كأسد نفسي هاشماً إياها». إنه لا يسكت حتى يقتل داود. كان شاول كالأسـد فـي بطشه وشراسته، ولكن عدوَّنا دائماً ليس «أسداً» بل «كالأسد» (1بط 5: 8).

3 ـ عدوُّه مُميت: «لا منقذ» يبدو أنه لا سبيل للنجاة! فلماذا يعرض على الله حالةً ميئوساً منها بهذا الشكل؟.. لا بـد أنه تذكَّر اختباراته الشخصية السابقة، عندما كان يرعى أغنام أبيه، فجاء أسدٌ وأخذ شاةً من القطيع، فخرج وراءه وضربه وأنقذ الشاة منه. ولما قام عليه الأسد أمسكه من ذقنه وضربه وقتله (1صم 17: 34–36). فهل يكون الله مع داود أقل حباً

منه مع غنمه؟.. مستحيل! لن يقف الرب ساكتاً وابنه في خطر. ولذلك رأى داود الرجاء رغم الخطر، ورفع صلاة الواثق، وصلاة الإيمان هي ثروة أولاد الله، فالإيمان يؤكد لنا قدرة الله ومحبته، والصلاة توصّلنا بالعرش الإلهي!

ثانياً ـ المرنم يعلن براءته

(آيات 3-5)

كان داود بريئاً. فأعلن براءته من اتهام كوش الظالم له بقوله: «يا رب إلهي، إن كنتُ قد فعلتُ هذا. إن وُجد ظلمٌ في يديَّ. إن كافأتُ مسالمي شراً وسلبتُ مضايقي بلا سبب، فليطارد عدوٌّ نفسي وليدركها، وليدُس إلى الأرض حياتي، وليحطَّ إلى التراب مجدي» (آيات 3-5).

أشهد داود السماء على براءته، وأعلن استعداده لقبول العقاب إن كان مخطئاً. إن السماء تعلم أنه لم يؤذِ عدوَّه الذي وقع في يديه مرتين: في برية عين جدي، وفي برية زيف (1صم 24، 26). كان ضمير داود مستريحاً من جهة شاول، يصدق عليه القول: «فخرنا هو شهادة ضميرنا» (2كو 1: 12) و«إن لم تلُمنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله» (1يو 3: 21).

لا يستطيع إنسان أن يقول إنه بريء تماماً من كل ذنب، لأنه «إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضِل أنفسنا وليس الحق فينا .. إن قلنا إننا لم نخطئ نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا» (1يو 1: 8، 10). لكن داود يعلن براءته من هذه التهمة الواحدة التي وجَّهها كوش ضده. وكأن داود يقول لله: «في هذا الموضوع يا رب أنا لم أخطئ».

وقد جاز أيوب اختباراً مشابهاً عندما اتَّهمه أصحابه أنه لا بد ارتكب خطايا جعلت الرب يوقِّع عليه العقاب، فقال لأصحابه إنه بريء، وإن كل ما حلَّ به ليس بسبب خطاياه. ثم أخذ يذكر مبادئه الأخلاقية التي سار عليها، فقال: «إن كنتُ منعتُ المساكين عن مرادهم، أو أفنيتُ عيني الأرملة، أو أكلت لقمتي وحدي فما أكل منها اليتيم.. فلتسقط عضدي من كتفي، ولتنكسر ذراعي من قصبتها» (أي 31: 16-22).

وحتى لو استطعنا أن نعلن براءتنا أمام الناس فلن نستطيع أن نعلنها أمام الله، لأن مقاييس الله تعلن أنه ليس إنسان صالحاً. على أننا نستطيع أن نعلن براءتنا أمام الله إن احتمينا بكفارة المسيح، فتكون براءتنا نابعة من نعمته وفدائه وفضله وحبه لنا، فنقول: «إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو 5: 1). ونقول: «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رو 8: 1).

يمكن أن يعلن الإنسان براءته أمام الله والناس من تهمة واحدة. ويمكن أن يعلن براءته أمام الناس من كل خطإٍ يعرف أنه لم يرتكبه. لكنه لا يقدر أن يعلن براءته أمام الله، الذي لن يتبرر أمامه حيٌّ (مز 143: 2).

ثالثاً ـ المرنم يطلب النجدة من الله

(آيات 6-10)

بعد أن أعلن داود براءته طلب النجدة من الله:

1 ـ طلب أن يُقيم الله محكمة علنية: ينصف فيها نبيّه المظلوم، يكون الله فيها القاضي العادل الجالس على عرشه المرتفع ليفحص التُّهمة الزائفة، فقال: «قُم يا رب بغضبك. ارتفع على سخط مضايقيَّ وانتبه لي. بالحق أوصيتَ» (آية 6).

يطلب منه أن يقوم مرتفعاً على الظلم والظالمين، لأنه في خوفه من أعدائه خشي من سكوت الرب عنه أو تركه له، فتجاسر عليه وقال له: «انتبه» مع أنه الذي لا تدركه سِنةٌ ولا نوم (مز 121: 4).

2 - طلب أن يشاهد الأمم هذه المحاكمة: ليشهدوا عدالة الله القاضي العادل فوق الجميع: فوق الملك شاول الظالم، وكوش الواشي الكاذب، فقال: «مجمع القبائل يحيط بك، فعُدْ فوقها إلى العُلى» (آية 7). والمعنى: اجمع الأمم من حولك يا رب، واجلس فوقها في الأعالي، لأن قدّيسيك المظلومين سيأتون بشكاواهم إلى محكمتك العليا.

3 - علم أن الله يقضي بالعدل: لأنه يرى كل الظروف والملابسات، فيقول: «الرب يدين الشعوب. اقضِ لي يا رب كحقّي، ومثل كمالي الذي فيَّ» (آية 8).

4 - علم أن عدالة الله ستضع نهاية للشرور: وكل من يشبههما، فيدعو الله: «لينتهِ شر الأشرار» (آية 9أ) إما بتوبة الشرير، فلا يصبح بعد صانع شر، ويتم فيه القول الرسولي: «لا يسرق السارق في ما بعد، بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه، ليكون له أن يعطي من له احتياج» (أف 4: 28). أو ينتهي الشرير بنهاية حياته على الأرض، وبنهايته الأبدية في الجحيم «لأن أجرة الخطية هي موت» (رو 6: 23).

5 - علم أن الله سينقذه: ويعطيه الثبات على الحق والإيمان، لأن الله يعرف الذين هم له، فيقول: «ثبِّت الصدِّيق، فإن فاحص القلوب والكُلى الله البار. ترسي عند الله، مخلّص مستقيمي القلوب» (آيتا 9ب، 10). و«القلوب والكُلى» تعبير عبري معناه أعماق الإنسان وأسراره وأفكاره

وعواطفه ونياته. ويقول داود إن الله يعرف دواخله، وسيثبّته في الحق والخير، فكل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا (عب 4: 13). إنه يدرك أن ترسه عند الله. والترس قطعة من الخشب مغطاة بالجلد يتلقّى الجندي عليها سهام الأعداء. فالرب يحمي المؤمن. لقد وجّه كوش سهماً ليؤذي داود، لكن الله لن يترك مستقيمي القلوب، بل لا بد أن يخلّصهم وينقذهم.

ما أسعد مستقيمي القلوب الذين يحامي الله عنهم، ويخيِّب مؤامرات الشرير ضدهم. يقول الوحي لهم: «الضيقات التي تحتملونها بيِّنة على قضاء الله العادل أنكم تُؤهَّلون لملكوت الله الذي لأجله تتألمون أيضاً، إذ هو عادلٌ عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً، وإياكم الذين تتضايقون راحةً معنا عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته، في نار لهيب، معطياً نقمةً للذين لا يعرفون الله ولا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح» (2تس 1: 4-8).

من الدروس الرائعة في محاكمة المسيح ما نتعلمه منه وهو يقف وسط مستنقع من الكراهية والكذب وإنكار الجميل. لكن نقطة واحدة من ذلك المستنقع الفاسد لم تدخل إلى نفسه، فقد ظلّ في وسط محيط الكراهية هذا مليئاً بالحب، وقال: «اغفر لهم يا أبتاه، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو 23: 34). في وسط هذا الموقف المليء بالعذاب البدني، يعطينا المسيح نموذجاً للصدِّيق الثابت الذي لا يسمح لآلام الحياة أن تعطله عن القيام بخدمته أو أداء رسالته أو تغيير مبدئه!

رابعاً - المرنم يخاطب أعداءه

(آيات 11-17)

1 - يحذّر أعداءه من خطورة موقفهم: «الله قاضٍ عادل، وإلهٌ يسخط في كل يوم» (آية 11). يعلن الله غضبه، ولكنه لا ينفّذ عقابه فوراً ليعطي الشرير فرصة للتوبة. واستمرار حياة الشرير بعد ارتكاب شره إعلانٌ أن الله لا يشاء أن يهلكه، بل يريد له التوبة، فيُقال له: «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالمٍ أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة!» (رو 2: 4). إن الله يسخط كل يوم لكنه لا يهلك، ليمنح الخاطئ فرصة للتوبة.

2 -يدعو أعداءه للتوبة: «إن لم يرجع (الشرير عن شره) يحدّد (الله) سيفه. مدَّ (الله) قوسه وهيّأها، وسدَّد نحوه (نحو الشرير) آلة الموت. يجعل سهامه ملتهبة» (آيتا 12، 13). عقاب الله متنوِّع في أسلوبه، صارم في تنفيذه، ولذلك يدعوهم للتوبة. أليس جميلاً أنه وهو يتألم من المشتكين عليه كذباً يدعوهم للتوبة قبل أن يوجّه الله سهامه وسيفه ضدهم فيهلكهم، وبهذا ينتهي شرُّهم إلى الأبد؟!

3 - يصف أعداءه بوصفين: (آيات 14-16).

ويهدف من هذين الوصفين أن يوضح عدم نفع الشر لمرتكبه، فسرعان ما ينقلب الشرعلى صاحبه ويهلكه.

(أ) يشبِّه الشريرَ بامرأة تتمخَّض لتلد سِقطاً: «هوذا (الشرير) يَمخض بالإثم. حمل تعباً، وولد كذباً» (آية 14). يتمخَّض الشرير بالإثم، ويحمل الفساد، فيلد الكذب. بدايته واستمراره ونهايته باطلة وقبض الريح، ولا منفعة له تحت الشمس. يحلم بأشياء كاذبة لا تنفعه شيئاً. يتعب بغير طائل. صحيح أنه «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟» (مت 16: 26).

(ب) يشبِّهه بصياد يحفر حفرة: إنه يريد أن يقع فيها الحيوان المطلوب صيده، فيسقط هو فيها! «كرا جُباً (بمعنى: حفر حفرة). حفره، فسقط في الهوّة التي صنع. يرجع تعبه على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه» (آيتا 15، 16). فالشر يميت الشرير، والخطية تخفض ولا ترفع. فلنحترس من حفر الحُفر للآخرين، ولنحاول أن نرفعهم لننال نحن البركة معهم، فإن الذي يحفر يهبط، والذي يرفع غيره يرتفع.

4 - يعلن لأعدائه أن إلهه العلي سينصره: «أحمد الرب حسب بره، وأرنّم لاسم الرب العلي» (آية 17). فما أكبر الفرق بين بداية المزمور وبين نهايته! انتهت الشجوية، ترنيمة البكاء، بهتاف فرح، فالتسبيح هو شُغل المؤمنين في الأرض وفي الأبدية. قد ترتخي أوتار قيثارة المؤمن من هموم الاضطهاد فتصدر اللحن الحزين، لكنها سرعان ما تعود إلى سابق نشاطها، بفضل نعمة الرب البار العادل المستقيم، العلي المرتفع، الذي يرى وينصف المظلوم من ظالمه!

اَلْمَزْمُورُ الثَّامِنُ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ عَلَى الْجَتِّيَّةِ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ
1أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا، مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ، حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ!
2مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ، لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ.
3إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ، الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا، 4فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ، وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ! 5وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ، وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. 6تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. 7الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً، وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً، 8وَطُيُورَ السَّمَاءِ، وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. 9أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا، مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ!

بمجدٍ تكلّله

هذا مزمور تمجيد وشكر لله، يسبح به المرنم الرب على صلاحه ومحبته للإنسان. يبدأ المزمور بكلمات تتكرر في آخره: «أيها الرب سيدنا، ما أمجد اسمك في كل الأرض!». وبعد أن يرتل المرنم المزمور يدرك عظمة الله فيعلن مجد اسمه في كل الأرض بطريقة أعمق وأفضل، فيحدِّثنا عن الله المتسربل بالحكمة والجلال. ونحن على مثال ما فعل صاحب المزمور يجب أن نبدأ يومنا بأن نرفع تسبيحة شكر لله، ونختمه بتسبيحة مماثلة. ولو أننا في نهاية اليوم ندرك فضل الله أكثر، لأنه أضاف في يومنا بركاتٍ جديدة تفوق بركات أمسنا. فالله هو الذي خلق الإنسان ويذكره، ويفتقده (بمعنى: يزوره) ويكلّله.

وكانوا يرنمون هذا المزمور «على الجتِّيَّة» وهي آلة موسيقية تشبه القيثارة، كانت تُستعمل في العاصمة الفلسطينية «جت». وقد ورد ذكر الجتية في عنوان مزموري 81 و84 أيضاً. ويمكن أن تُترجم كلمة «الجتية» بـ «نشيد القطاف» يغنّيه دائسو العنب في المعصرة، أو تعني «نشيد الحَرس الجَتي» (2صم 15: 18). فيكون أن المرنم صاغ الكلمات بوحي الروح القدس، واختار لها لحناً من إبداع الفلسطينيين، مما يعني أن البشر جميعاً يشتركون في تسبيح الرب بطريقة أو بأخرى.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – ما أمجد اسم الله في الطبيعة (آية 1)

ثانياً – ما أمجد اسم الله في الأطفال (آية 2)

ثالثاً – ما أمجد اسم في الإنسان الضعيف (آيتا 3، 4)

رابعاً – ما أمجد الإنسان الله الذي كرّمه الله (آيات 5–8)

أولاً ـ ما أمجد اسم الله في الطبيعة
(آية 1)

في مطلع المزمور وفي خاتمته يمجّد المرنم الله ويسبحه، لأنه خالق الطبيعة، أرضها وسماءها، لأنها المرايا التي تعكس للبشر بهاء مجد الرب، ولأنها المسرح الذي تدور فوقه أعمال مجده، فيرتل المرنم لله: «أيها الرب سيدنا، ما أمجد اسمك في كل الأرض، حيث جعلت جلالك فوق السماوات» (آية 1).

تتحدَّث الخليقة كلها بعظمة حكمته وقدرته الفائقة، فهو «حاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته» (عب 1: 3). «السماوات تحدِّث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه» (مز 19: 1). «أنت هو الرب وحدك. أنت صنعت السماوات وسماء السماوات وكل جندها، والأرض وكل ما عليها، والبحار وكل ما فيها، وأنت تحييها كلها، وجند السماء لك يسجد» (نح 9: 6). «ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمة صنَعْتَ. ملآنةٌ الأرض من غناك. هذا البحر الكبير الواسع الأطراف، هناك دبابات بلا عدد، صغار حيوان مع كبار.. كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه. تعطيها فتلتقط، تفتح يدك فتشبع خيراً» (مز 104: 24–28). بدون كلام ولا ضوضاء تعلن الطبيعة مجد الله. تعلنه بنعمةٍ وتناسقٍ للجميع. في مطلع كل صباح نرى الشمس تشرق، وفي ختام كل يوم نرى النجوم تتألق في الفضاء. وعندما نتطلع إلى هذه كلها، تمتلئ قلوبنا بروح التعبُّد والشكر والتسبيح فنقول له: «أنت سيِّدُنا». جلالك فوق السماوات يا مَن يسبِّح لك السرافيم: «قدوس. قدوس. قدوس رب الجنود. مجده ملء كل الأرض» (إش 6: 3) فتهتزّ أساسات أعتاب بيت الله من صوت الهتاف.

ثانياً ـ ما أمجد اسم الله في الأطفال
(آية 2)

«من أفواه الأطفال والرضَّع أسست حمداً». يُعجب الطفل وبندهش من كل جديد، لأن الروتينية لم تصبه بعد بالملل. ونحتاج أن نتعلم من الأطفال أن نندهش من أعمال الله العظيمة، فنتأملها بعيون مفتوحة وقلوب تريد أن تتعلم أكثر. وكل من دخل ملكوت الله يصير مثل الأولاد المنبهرين بعظمة الله، الواثقين من محبته (مت 18: 3).

«من أفواه الأطفال والرضَّع أسست حمداً، بسبب أضدادك (خصومك) لتسكيت عدوٍّ ومنتقم». وقد تحقَّقت هذه الكلمات حرفياً وقت دخول المسيح الانتصاري إلى أورشليم، فيقول الإنجيل: «فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التي صنع، والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون: أوصنا لابن داود، غضبوا وقالوا له: أتسمع ما يقول هؤلاء؟ فقال لهم يسوع: نعم. أما قرأتم قط: من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحاً؟» (مت 21: 15، 16). عجز أئمة اليهود عن معرفة المسيح فلم يهتفوا له، ولكن هؤلاء الصغار عرفوه بقلوبهم فهتفوا له: «أوصنا» بمعني: يا رب خلِّصنا (مت 21: 9).

إن قدرة هؤلاء الصغار على التعبير الشفاف الصادق والعفوي يُخرِس ألسنة الأعداء والمنتقمين. أراد لصٌّ أن يسرق شجرة فاكهة، فأخذ ولده معه وقال له: «عندما ترى شخصاً يراني حذِّرني». وتسلّق الأب الشجرة ليسرق، وسرعان ما

دعاه الولد: «بابا، هناك مَن يراك». ونزل الأب مسرعاً يسأل: «من يراني؟» فأجاب: «الله يراك». وكانت الكلمات سبباً في توبة الأب.

لما كان «جورج هويتفيلد» الواعظ البريطاني يعظ في بلد في شمال شرق أمريكا في القرن الثامن عشر، فيما يُعرف بولايات «نيو إنجلاند» سلّمت سيدة حياتها للمسيح. وحاولت أن تقود بعض جاراتها للخلاص ولكنها لم تُوفَّق، فوضعت اهتمامها كله في ابنتها التي تبلغ من العمر عشر سنوات. واستجابت الابنة لمحبة الرب. وذات مرة سألت الابنة: «ماما، لماذا لا نكلم أهل بلدنا بهذه الأخبار المفرحة؟» فأجابت الأم: «أنا حاولت كثيراً ويئست». فقالت الابنة: «سأقوم أنا بهذا العمل». وخرجت مسرعة ووجدت أول محل تجاري لبائع أحذية، فدخلت وسالت البائع: «هل سمعت الأخبار المفرحة عن المسيح المخلِّص؟» وحدّثته عن الفرح الذي ملأ قلبها والتغيير الذي حدث في منزلها. وتأثر الرجل وصلى وقَبِل الرب. وعلى مدى شهرين قبل خمسون شخصاً في تلك القرية المسيح، لأن فتاة صغيرة بحماستها وحبها للرب قررت أن تفعل شيئاً، مع أن اليأس كان قد أصاب أمها.

مرةً واجه مارتن لوثر مقاومةً شديدة أصابته باليأس. وكان زميله ميلانكثون يتمشّى في البلد فرأى بعض الأولاد مجتمعين يصلّون من أجل الإصلاح الديني، فرجع وعلى وجهه ابتسامة كبيرة وقال للوثر: «لقد نجونا. حتى الأولاد يصلّون من أجلنا».

إننا نبتهج بأولادنا وبناتنا في مدرسة الأحد، لأن وصول الرسالة إلى قلوبهم يجعل منهم شهوداً أمناء للمسيح، ومن حياتهم وأفواههم يؤسس الله حمداً يُخزي الخطاة الكبار الذين تحجّرت قلوبهم لفرط ما سمعوا، حتى صارت قصة صليب المسيح عندهم مجرد قصة تاريخية، لم تعد تثير فيهم اندهاشاً ولا شكراً.

أما العدو المنتقم الأكبر الذي سيُسكَت آخر الكل فهو إبليس، عندما نسمع مع الرائي: «صوتاً عظيماً قائلاً في السماء: الآن صار خلاص إلهنا وقدرته ومُلكه وسلطان مسيحه، لأنه قد طُرح المشتكي على إخوتنا.. من أجل هذا افرحي أيتها السماوات والساكنون فيها» (رؤ 12: 10– 12).

ثالثاً ـ ما أمجد اسم الله في الإنسان الضعيف

(آيات 3، 4)

ثم يمجد المرنم الرب لأنه يهتم بالإنسان الضعيف الصغير الضئيل بالمقارنة بالطبيعة العظيمة، فيقول: «إذا أرى سمواتك، عمل أصابعك، القمر والنجوم التي كوّنتها. فمن هو الإنسان حتى تذكره، وابن آدم حتى تفتقده؟» (بمعنى: حتى تزوره، أو تلتفت إليه مُنعماً) (آيتا 3، 4).

ما أقل ما نعرفه عن أعمال الله في الخليقة. وقت كتابة هذه الكلمات قرأت أن فريقاً من الباحثين الأوربيين اكتشفوا مجرَّة جديدة بالكون على بُعد يتراوح بين 13، 17 مليار سنة ضوئية من الأرض، وهي بذلك أبعد مجرَّة معروفة. وأعلنت المنظمة الأوربية للأبحاث الفلكية أن وصول ضوء هذه المجرة إلى تلسكوب المنظمة الموجود في شيلي استغرق 90% من عمر الكون! وعندما يقارن الإنسان نفسه بعظمة الطبيعة يكتشف مقدار ضآلته. عمر الطبيعة ملايين السنين، والإنسان «قليل الأيام وشبعان تعباً» (أي 14: 1). قال موسى كليم الله: «أيام سنينا هي سبعون سنة، وإن كانت مع القوة فثمانون

سنة، وأفخرها تعبٌ وبليّة، لأنها تُقرض سريعاً فنطير» (مز 90: 10). والطبيعة قوة جبارة في الزلازل والبراكين، وهدير الشلالات وارتفاع الجبال، بينما الإنسان «كعشبٍ يزول. بالغداة يزهر فيزول. عند المساء يُجزّ فييبس» (مز 90: 5، 6).

قال بلدد الشوحي، صديق أيوب، عن الله: «السلطان والهيبة عنده.. هل من عددٍ لجنوده؟.. هوذا نفس القمر لا يضيء، والكواكب غير نقية في عينيه. فكم بالحري الإنسان الرِّمَّة وابنُ آدم الدود!» (أي 25: 2-5). من هو الإنسان حتى يفتقده الرب سيدنا، صاحب أمجد اسم في كل السماوات والأرض! إنه، وهو خالق هذه كلها، لا يزال يفكر في الإنسان البسيط الذي هو لا شيء. قال أيوب لله: «ما هو الإنسان حتى تعتبره، وحتى تضع عليه قلبك؟» (أي 7: 17). وقال المرنم: «يا رب، أي شيء هو الإنسان حتى تعرفه، أو ابن الإنسان حتى تفتكر به؟» (مز 144: 3).

وقد لا يرى الشرير في كبريائه عظمة الكون وحقارة الإنسان، ولكن المتواضع يدرك هذا «لأنه هكذا قال العلي المرتفع ساكن الأبد، القدوس اسمه: في الموضع المرتفع المقدس أسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأحيي روح المتواضعين ولأحيي قلب المنسحقين» (إش 57: 15). وعندما نتأمل الخبر المفرح أن الرب جاءنا في هيئة إنسان، متجسداً في المسيح، نقول في دهشة وفي شكر: «من هو الإنسان حتى تذكره؟!».

رابعاً ـ ما أمجد الإنسان الذي كرَّمه الله

(آيات 5-8)

1 ـ رفع الله قيمة الإنسان: «تَنْقُصه قليلاً عن الملائكة، وبمجدٍ وبهاءٍ تكلله» (آية 5أ). بعد أن مجّد المرنم الله على الإنسان الضعيف الذي أكرمه، يقدم التمجيد لله لأنه رفع قيمته. والقول «تنقُصه قليلاً» يعني القليل في الزمان، أو القليل في المقام. فالإنسان أقل من الملاك، لأن الملاك لا يموت، بينما الإنسان يموت. ولكن هذا الموت مؤقَّت «فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو 5: 28، 29). والإنسان أقل من الملاك في المقام هنا على الأرض. ولكن ماذا بعد الموت؟ «بمجد وبهاء تكلله» (آية 5ب).

ويقول في العبرانيين 2: 16 إن الله لم يخلّص الملائكة الذين سقطوا، ولكنه دبّر خلاص آدم ونسله، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا.

2 ـ منح الله الإنسان السلطة: «تسلّطه على أعمال يديك. جعلت كل شيء تحت قدميه: الغنم والبقر جميعاً وبهائم البرّ أيضاً، وطيور السماء، وسمك البحر السالك في سبُل المياه» (آيات 6-8).

خلق الرب آدم «على صورته» (تك 1: 27) فالإنسان على صورة الرحمان، ووضعه في جنة عدن «ليعملها ويحفظها» (تك 2: 15) ومنحه السلطة على الخليقة (تك 1: 28) ليسود على الأرض وعلى كل ما فيها، كوكيلٍ عن الله الخالق. وجعل الله كل الخليقة تحت قدمي الإنسان ليستخدمها. ولم يقصد أبداً أن تسود المخلوقات على آدم. ولكن حين نستعبد أنفسنا للمادة نضيّع البركة التي قصد الله أن يمنحها لنا.

لقد مجّد الله الإنسان بثلاث بركات، نجدها في آيتي 4، 5 «تذكره».. «تفتقده».. «تكلله».

(أ) «تذكره»: بمعنى تفكر فيه. فهل عند الرب اهتمام بالبشر حتى يفكر فيهم؟ من هو الإنسان حتى تذكره وتُدخِله في حساباتك؟ إنك تهتم بكل ما فيه، حتى أنك تحصي شعر رأسه؟

(ب) «تفتقده»: بمعنى تزوره.. تجيء إليه. نعم، زارنا في المسيح «الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا» (يو 1: 14). كان المسيح يسير في موكب مع تلاميذه تحيطه جموع كثيرة، ورفع عينيه إلى شجرة جميز فرأى رجلاً خاطئاً قصير القامة قد تسلّق أحد فروعها ليتملّى من رؤيته، فناداه باسمه: «يا زكا، أسرِع وانزِل، لأنه ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك» (لو 19: 5). لقد دعا نفسه إلى بيت زكا، وافتقده. ثم قال عنه بعد ذلك: «اليوم حصل خلاص لهذا البيت» (لو 19: 9). فمَن هو زكا حتى تفتقده؟ ما أمجد اسمك في كل الأرض لأنك تذكر زكا. إنك عمانوئيل، الإله الذي معنا.

وهو الآن يفتقدك أنت ويقرع باب قلبك. ومعظم من يفتحون قلوبهم للمسيح لم يسلِّموا حياتهم له من أول قرع. ولذلك يعاود القرع ويستمر يقرع، كأنه المحتاج، بينما هو الذي يريد أن يعطي ويبارك ويُنعِم. ولا زال المسيح يأتينا ويمدّ يده إلينا، ويوصي ملائكته ليحفظونا في كل طرقنا.

(ج) «تكللـه»: إنه يضع على رؤوسنا أكاليل المجد. «بمجد وبهاء تكلله». لقد «غسّلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه» (رؤ 1: 5، 6).

«جعلتَ كل شيء تحت قدميه». هل تريد أن يكون كل شيء تحت قدميك؟ تجد الإجابة في التسبيح الذي يبدأ المزمور وينتهي به «أيها الرب سيدنا». عندما يكون الله سيد حياتك تصبح أنت سيد كل شيء. أعطِ الرب السلطة على حياتك يعطِك الرب السلطة على مخلوقاته. أعطِ المسيح حرية التصرف في حياتك، يعطِك المسيح حرية التصرف في كل شيء.

هل تحيا الحياة المنتصرة؟ هل لك سلطان على نفسك؟ هل تضبط غرائزك؟ «الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات» (غل 5: 24).

وقد اقتبس كاتب العبرانيين الآيات 4–6 من مزمورنا، وقال إنها تشير إلى المسيح: «فإنه لملائكة لم يُخضع العالم العتيد الذي نتكلم عنه. لكن شهد واحدٌ في موضع قائلاً: ما هو الإنسان حتى تذكره، أو ابن الإنسان حتى تفتقده؟ وضعته قليلاً عن الملائكة، بمجدٍ وكرامةٍ كلَّلتَه، وأقمته على أعمال يديك. أخضعت كل شيء تحت قدميه» (عب 2: 5–8).

ومعنى هذه الآيات أنه يبدو للإنسان العادي أن المسيح أقل من الملائكة لأنه أخذ جسداً إنسانياً. ولكن المسيح ارتفع إلى درجة التكليل بالمجد الأعلى لأنه أخذ جسد الإنسان ليخلّص الإنسان، ولما أكمل هذا الخلاص خضعت له كل الأشياء. وهذا ما لم ينله أي ملاك من الملائكة.

لم يخضع الله عالمنا للملائكة، لكنه أعطى السيادة فيه للإنسان، وللمسيح ابن الإنسان، فأسكت المسيح العاصفة، وهدّأ الموج، وأقام الموتى. ويخضع العالم الآتي للمسيح، فهو الشفيع والقاضي، الذي سيعلن في مجيئه الثاني نهاية العالم وبداية الدينونة.

خامساً ـ تمجيد ختامي

(آية 9)

«أيها الرب سيدنا، ما أمجد اسمك في كل الأرض!». بدأ المزمور بهذا التمجيد ويُختم به. ويرتل المرنم التمجيد الختامي، الذي افتتح به مزموره، ولكن بفهم جديد. لقد تعلّم أن يمجد الله ويكرمه، فتحتل سيطرة الإنسان على الطبيعة والخليقة المكانة الثانية في أولويات حياته، وتحتل عبادته وتمجيده لله المكانة الأولى، فيقول له: «أيها الرب سيدنا».

وعندما نعترف أن الرب سيدنا نثق أنه المعتني بنا، ويكون إلى اسمه وإلى ذكره شهوة النفس (إش 26: 8) وتكون طاعته مطلبنا الأول، فنمجده ونعبده، وننتظر مجيء مسيحه ثانية من السماء.

اَلْمَزْمُورُ التَّاسِعُ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. عَلَى «مَوْتِ الابْنِ». مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1أَحْمَدُ الرَّبَّ بِكُلِّ قَلْبِي. أُحَدِّثُ بِجَمِيعِ عَجَائِبِكَ. 2أَفْرَحُ وَأَبْتَهِجُ بِكَ. أُرَنِّمُ لاِسْمِكَ أَيُّهَا الْعَلِيُّ. 3عِنْدَ رُجُوعِ أَعْدَائِي إِلَى خَلْفٍ يَسْقُطُونَ وَيَهْلِكُونَ مِنْ قُدَّامِ وَجْهِكَ، 4لأَنَّكَ أَقَمْتَ حَقِّي وَدَعْوَايَ. جَلَسْتَ عَلَى الْكُرْسِيِّ قَاضِياً عَادِلاً. 5انْتَهَرْتَ الأُمَمَ. أَهْلَكْتَ الشِّرِّيرَ. مَحَوْتَ اسْمَهُمْ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. 6اَلْعَدُوُّ تَمَّ خَرَابُهُ إِلَى الأَبَدِ. وَهَدَمْتَ مُدُناً. بَادَ ذِكْرُهُ نَفْسُهُ. 7أَمَّا الرَّبُّ فَإِلَى الدَّهْرِ يَجْلِسُ. ثَبَّتَ لِلْقَضَاءِ كُرْسِيَّهُ، 8وَهُوَ يَقْضِي لِلْمَسْكُونَةِ بِالْعَدْلِ. يَدِينُ الشُّعُوبَ بِالاسْتِقَامَةِ. 9وَيَكُونُ الرَّبُّ مَلْجَأً لِلْمُنْسَحِقِ، مَلْجَأً فِي أَزْمِنَةِ الضِّيقِ. 10وَيَتَّكِلُ عَلَيْكَ الْعَارِفُونَ اسْمَكَ، لأَنَّكَ لَمْ تَتْرُكْ طَالِبِيكَ يَا رَبُّ.

11رَنِّمُوا لِلرَّبِّ السَّاكِنِ فِي صِهْيَوْنَ. أَخْبِرُوا بَيْنَ الشُّعُوبِ بِأَفْعَالِهِ، 12لأَنَّهُ مُطَالِبٌ بِالدِّمَاءِ. ذَكَرَهُمْ. لَمْ يَنْسَ صُرَاخَ الْمَسَاكِينِ.

13ارْحَمْنِي يَا رَبُّ. انْظُرْ مَذَلَّتِي مِنْ مُبْغِضِيَّ، يَا رَافِعِي مِنْ أَبْوَابِ الْمَوْتِ، 14لِكَيْ أُحَدِّثَ بِكُلِّ تَسَابِيحِكَ فِي أَبْوَابِ ابْنَةِ صِهْيَوْنَ مُبْتَهِجاً بِخَلاَصِكَ.

15تَوَرَّطَتِ الأُمَمُ فِي الْحُفْرَةِ الَّتِي عَمِلُوهَا. فِي الشَّبَكَةِ الَّتِي أَخْفُوهَا انْتَشَبَتْ أَرْجُلُهُمْ. 16مَعْرُوفٌ هُوَ الرَّبُّ. قَضَاءً أَمْضَى. الشِّرِّيرُ يَعْلَقُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ. (ضَرْبُ الأَوْتَارِ). سِلاَهْ. 17اَلأَشْرَارُ يَرْجِعُونَ إِلَى الْهَاوِيَةِ، كُلُّ الأُمَمِ النَّاسِينَ اللهَ. 18لأَنَّهُ لاَ يُنْسَى الْمِسْكِينُ إِلَى الأَبَدِ. رَجَاءُ الْبَائِسِينَ لاَ يَخِيبُ إِلَى الدَّهْرِ. 19قُمْ يَا رَبُّ. لاَ يَعْتَزَّ الإِنْسَانُ. لِتُحَاكَمِ الأُمَمُ قُدَّامَكَ. 20يَا رَبُّ، اجْعَلْ عَلَيْهِمْ رُعْباً، لِيَعْلَمِ الأُمَمُ أَنَّهُمْ بَشَرٌ. سِلاَهْ

أقمت حقي

هذا المزمور ترنيمة انتصار، تبدأ كل آيتين منه بحرف من الأبجدية العبرية. وينقسم إلى قسمين رئيسيين، فيهما كليهما تعبير عن الشكر لله لأنه ينصر المؤمنين على الأشرار والظالمين. لقد راقب المرنم الصراع المستمر في العالم بين الخير والشر، فرأى الأمم الشريرة الوثنية تهاجم أُمته المؤمنة. وفي أمته المؤمنة رأى الظالمين ينتصرون على الأبرياء، فدعا الله لينصر الأبرياء كما نصر أمته على عُبّاد الوثن، ودعاه ليعاقب الظالمين الذين ينكرون قوته وعدالته.

وواضح أن الملك داود هو كاتب المزمور، فهو يتحدث كممثل لأمته، ويعتبر أعداء الأمة أعداءه (آية 3) ويعتبر قضية الأمة قضيته (آية 4). ونحن نسأل: إن كان الملك قد كتب المزمور واحتج على

الظالمين، فلماذا لم يفعل شيئاً ليرفع الظلم عنهم؟ والإجابة: إنه نتيجة لحكم الملك الظالم شاول والذين سبقوه، لم يتمكن داود من التحكم في سلوك نبلاء مملكته، وعجز عن إرساء قواعد العدل. ولما رأى عجزه، لجأ إلى الرب ملك الملوك ليقضي القضاء العادل.

ويقول عنوان المزمور إنه على «موت الابن». وهو غالباً اسم اللحن الذي كانوا يُرتّلون به هذا المزمور، هو لحنٌ غير معروف لنا اليوم.

ويمكن تقسيم المزمور بالشكل التالي:

الجزء الأول آيات 1–12	الجزء الثاني آيات 13 – 20
(1) 1–4 تسبيح	(1) 13 و14 صلاة
(2) 5، 6 الله قضى بالعدل على الشرير	(2) 15، 16 الله قضى بالعدل على الشرير
(3) 7–10 الله سيقضي بالعدل وينجي المؤمن	(3) 17، 18 الله سيقضي بالعدل وينجي المؤمن
(4) 11، 12 تسبيح	(4) 19، 20 صلاة

الجزء الأول

(آيات 1-12)

أولاً - تسبيح

(آيات 1-4)

في هذه الأعداد نرى أن موضوع التسبيح هو: أنت يا رب «أرنم لاسمك». كما نرى أن سبب التسبيح هو: «أعمالك». ونرى أن طبيعة التسبيح هي: «بكل قلبي».

وسنتأمل وصف التسبيح ونذكر سببه:

يسبّح المرنم الرب فيقول: «أحمد الرب بكل قلبي، أُحدّث بجميع عجائبك. أفرح وأبتهج بك، أرنم لاسمك أيها العلي» (آيتا 1، 2).

1 - وصف التسبيح:

(أ) تسبيحٌ مُخْلص: «بكل قلبي» (آية 1أ). كما قال: «باركي يا نفسي الرب، وكل ما في باطني ليبارك اسمه القدوس» (مز 103: 1). لقد شعر بعظمة الخلاص، ورأى الرب يميِّز تقيَّه، فهتف بشفتيه من كل قلبه.

(ب) تسبيحٌ علني: «أُحدِّث بجميع عجائبك» (آية 1ب). لقد اختبر صلاح الله، فيحمده بكل قلبه ويحدّث المحيطين به بما فعله معه. جميلٌ أن نحدّث ونخبّر في بيتنا ووسط أهلنا كم صنع الرب بنا ورحمنا (مر 5: 19) لأن فرحتنا أكبر مما نقدر أن نخفيها داخلنا. فما أعظم أعمال العناية، والفداء، والتقديس!

(ج) تسبيحٌ فرحان: «أفرح وأبتهج بك» (آية 2أ). كان أعداؤه ينهشونه وهو عاجز عن الدفاع، فأنقذه الرب، ففرح وابتهج بإلهه. دعونا نبتهج لأن الله لا بد سيتدخَّل لينقذنا، والفرج لا بد قادم، فنقول: «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً، فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص، وتقولون في ذلك اليوم: احمدوا الرب. ادعوا باسمه. عرِّفوا بين الشعوب بأفعاله» (إش 12: 2–4).

(د) تسبيحٌ شخصي: «أرنِّم لاسمك أيها العليّ» (آية 2ب). فرحة المرنم هي أولاً بالرب، وثانياً بعطايا الرب. فرح بما حصل عليه، وفرح أكثر لأن الرب العلي معه، فهذا يعني أن المعطي سيستمر يعطي وينجي. وبروح التسبيح نتخطى الصعاب التي ينهزم تحتها المكتئبون، لأن فرح الرب يعطي قوة (نح 8: 10).

2 - سبب التسبيح: «عند رجوع أعدائي إلى خلفٍ يسقطون ويهلكون من قدام وجهك، لأنك أقمتَ حقي ودعواي. جلستَ على الكرسي قاضياً عادلاً» (آيتا 3، 4).

(أ) الرب الديان: تقدَّموا للهجوم، لكن الرب أرجعهم إلى خلف، لا بسبب نفوذ المرنم وجيشه وماله ودبلوماسيته وأصحابه، بل بالقوة الإلهية التي تهزم الظالم، وبالمحبة السماوية التي تنجّي التقي. «لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال ربُّ الجنود» (زك 4: 6).

(ب) الرب المحامي: «لأنك أقمتَ حقّي ودعواي» (آية 4أ). يعرف الرب نيَّة الإنسان، ويقيم حقَّه إن كان على حق، ويدافع عن قضيته إن كانت دعواه صحيحة وعادلة. فلنتأكد أننا على حق، ليقيم الرب حقّنا الذي يحاول الظالمون أن يطرحوه أرضاً، فنقول: «لا تشمتي بي يا عدوَّتي. إذا سقطتُ أقوم. إذا جلستُ في الظلمة فالرب نورٌ لي. أحتملُ غضبَ الربِّ لأني أخطأتُ إليه حتى يقيم دعواي ويُجري حقّي. سيُخرجني إلى النور. سأنظر برَّه» (مي 7: 8، 9).

(ج) الرب القاضي: «جلستَ على الكرسي قاضياً عادلاً» (آية 4ب). يدين الرب الأشرار والظالمين الذين يتناسون عدالته، ويظنون أنهم ناجون من الوقوف أمام كرسيّ عدله. إن دينونة الله هي حسب الحق، ولن يترك أتقياءه ليقعوا تحت رحمة أحكام الظالمين.

ثانياً - الله قضى بالعدل على الشرير

(آيتا 5، 6)

يقول المرنم في هاتين الآيتين: «انتهرتَ الأمم. أهلكتَ الشرير. محوتَ اسمهم إلى الدهر والأبد. العدوُّ تمَّ خرابه إلى الأبد. باد ذكره نفسُه».

1 - الله ينتهر الأشرار: إنه يوبخهم على وثنيتهم وظلمهم. ومن هذا نرى أن كلمة الله خالقة تمنح الحياة، كما أنها موجِّهة تشير إلى سبُل البر وتصيِّر الجاهل الذي يقبلها حكيماً. وهي أيضاً قاضية تُصدر الأحكام على من يرفضها. ويبدو أن الأشرار الذين وصفهم المرنم هنا لم يسمعوا انتهار الله، ولا اتّقوه، فجاء عليهم عقابه.

2 - الله يُهلك الأشرار غير التائبين: كان الوثنيون أعداء المرنم، وفي القضاء عليهم بالعدل لا يواجه المرنم عدوَّه، لكن إلهه هو الذي يواجههم. هذا ما حدث في الضربات العشر (خروج 7–12) فقد كانت كلها مواجهة بين الإله الحقيقي، خالق السماء والأرض، وبين آلهة فرعون. الله في مواجهة النيل، معبود المصريين، فيتحوّل ماء النهر إلى دم. الله في مواجهة العجل أبيس، فتموت الثيران. المواجهة هنا تتم بين إلهنا الذي ننتمي إليه وبين معبود العدو. يبيد الله الشرير ويهلكه ويمحو اسمه، فنقول مع المرنم: «العدو تمَّ خرابه». أما مدينة الله فتثبت.

وأرجو أن نلاحظ أن إبليس لا ييأس ولا يفشل. يخسر معركة ولكنه يعاود الهجوم. هاجم المسيح في البرية، وهزمه المسيح ولكن المهزوم لم ييأس، بل «فارقه إلى حين» (لو 4: 13) ثم عاد ليهاجمه من جديد. وهذا ما يتكرر معنا. إن انتصارنا في معركة لا يعني أن المعارك انتهت. فلنكن يقظين مستعدين لمعركة أخرى.

ثالثاً - الله سيقضي بالعدل وينجي المؤمن

(آيات 7-10)

في هذه الآيات يتحدث المرنم عن الرب، ملجإ المنسحق المتضايق، الموجود دائماً لحماية المظلوم من الظالم. وكل من اختبر أمانة الله وحمايته له في الماضي لا يتشكَّك في حماية الله له في المستقبل. وفي هذه الآيات الأربع وصفين للرب، ووصفين للمؤمنين:

1 - وصفان للرب:

(أ) **الرب صاحب العدالة الأبدية:** «أما الرب فإلى الدهر يجلس. ثبّت للقضاء كرسيّه» (آية 7). قال المرنم لله في آية 4 «أقمتَ حقي .. جلستَ على الكرسي». قام للقضاء بالعدل، وجلس بعد أن أتمَّه. قام لينجي وجلس بعد أن نجَّى. فهو الذي إلى الدهر يقضي ويجلس بعد أن يقوم بإنقاذ أولاده. مملكته على الكل تسود، فهو الدائم الوجود. واختبارنا لصلاحه معنا في الماضي يملأنا بالثقة في المستقبل.

(ب) **الرب منصف المظلومين:** «يقضي للمسكونة بالعدل. يدين الشعوب بالاستقامة. ويكون الرب ملجأ للمنسحقين، ملجأ في أزمنة الضيق» (آيتا 8، 9). محكمة الله عادلة بلا تحيُّز. وعدالة الله تنبّه الخاطئ ليتوب، كما تطمئن المؤمن المتضايق ليتَّكل على الرب البار العادل، الذي ينقذ المسكين من يد ظالمه.

سحق إبليس المظلومين بالخطية والعصيان. والخطية هي السيد القاسي الذي لا يرحم، و«كل من يفعل الخطية هو عبد للخطية» (يو 8: 34). ويسحق الخطاة إخوتهم من البشر، لأن إبليس ينفّذ ما يريد بواسطة من يتبعونه.

والملجأ من الخطية، ومن الضيق والظلم هو الرب الحصن والقلعة، الذي يحمي من الخطية ومن الهجوم الشرس ومن مكائد الشرير. الرب نفسه هو الملجأ «اسم الرب برج حصين، يركض إليه الصدّيق ويتمنّع» (أم 18: 10). قال بطرس للمسيح: «يا رب، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك» (يو 6: 68).

2 - وصفان للمؤمن:

(أ) **يعرف اسم الرب**: «يتّكل عليك العارفون اسمك» (آية 10أ). عرف المؤمن الرب مخلّصاً وفادياً من الإعلانات الإلهية، فآمن بالإعلان الإلهي واتكل عليه واثقاً. عرفه يكفّر عن ذنوبه بدم المسيح حمل الله، الذبح العظيم «الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته. الذي لنا فيه الفداء، بدمه غفران الخطايا» (كو 1: 13، 14). وهذه هي المعرفة الخلاصية. وعرفه معرفة من نوعٍ آخر، هي معرفة عنايته. اختبره في وقت الضيق فعرف أنه القاضي العادل. وأنشأ هذا الاختبار في المؤمن مزيداً من الإيمان، جعله يتكل أكثر على الرب. وهكذا تستمر حياة المؤمن من اختبار إلى اختبار أكبر، ومن إيمان إلى إيمان أقوى. عندها «يتكل عليك العارفون اسمك» ويقولون: «لأني عالمٌ بمن آمنت» (2تي 1: 12).

(ب) **يطلب الرب**: «لأنك لم تترك طالبيك» (آية 10ب). «أما طالبو الرب فلا يعوزهم شيء من الخير» (مز 34: 10). «ويفرح بك جميع طالبيك» (مز 40: 16) «الأشرار لا يفهمون الحق، وطالبو الرب يفهمون كل شيء» (أم 28: 5).

يطلب المؤمن الرب لأنه يثق في حبه، وأنه يفتش عليه لأنه سبق أن فتّش عليه حتى وجده. قال المسيح: «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني. والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي .. إن أحبني أحدٌ يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو 14: 21، 23).

رابعاً - تسبيح
(آيتا 11، 12)

ويختم الجزء الأول من المزمور بالتسبيح في الآيتين 11، 12. بعد أن فاض قلبه بالشكر يشجع الآخرين على الانضمام إليه في التسبيح. وهو يسبح الرب على أربعة أمور:

1 - لأن الرب يسكن وسط شعبه: «رنموا للرب الساكن في صهيون» (آية 11أ). وصهيون (معناها الحصن) وهي العاصمة السياسية والدينية. وهذا يعني أن أمورنا الدينية والدنيوية تهمُّ إلهنا، وهو ساكن وسط شعبه، يقبل عبادتهم ويسمع صلواتهم ويدبر احتياجاتهم.

2 - **لأن المؤمنين يتحاكون بعمله:** «أَخبِروا بين الشعوب بأفعاله» (آية 11ب). «بشروا من يومٍ إلى يومٍ بخلاصه. حدِّثوا بين الأمم بمجده، بين جميع الشعوب بعجائبه، لأن الرب عظيم وحميدٌ جداً» (مز 96: 2-4).

3 - لأنه عادل: «لأنه مُطالِبٌ بالدماء» (آية 12أ). فقد سأل قايين يوم قتل هابيل أخاه: «ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخٌ إليّ من الأرض» (تك 4: 10). وستنعقد محكمة العدل الإلهي في يوم القضاء لتنتقم للشهداء من قاتليهم الأشرار.

4 - لأنه لا يهمل أحداً: «ذَكَرَهم. لم ينْسَ صراخ المساكين» (آية 12ب). «هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك» (إش 49: 15). «أليس عصفوران يُباعان بفلس؟ وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم!.. فلا تخافوا، أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (مت 10: 29، 31).

يا طالبي الرب ويا محبّيه، لنشكر الرب ولنسبحه دائماً.

الجزء الثاني
(آيات 13-20)

يشبه الجزء الثاني من المزمور جزءه الأول، غير أن المرنم يستبدل التسبيح والحمد بالصلاة والطلب. والصلاة هي الميناء الذي يلجأ إليه كل من كادت سفينة حياته أن تتحطم من الأمواج، وهي العكاز القوي الذي يستند عليه كل من يوشك أن يتهاوى أو يسقط، وهي أضمن وسيلة للحصول على البركات وعلى استمرارها.

أولاً - صلاة
(آيتا 13، 14)

«ارحمني يا رب. انظر مذلتي من مبغضيّ، يا رافعي من أبواب الموت. لكي أُحدّث بكل تسابيحك في أبواب ابنة صهيون، مبتهجاً بخلاصك» (آيتا 13، 14).

1 - سيظل العدو يهاجم المؤمن: في الجزء الأول سبّح المرنم الرب لأنه نجّاه من أعدائه وأتمَّ له النصر. لكن العدو لا بد سيعود ليهاجمه من جديد، فإبليس وجنوده لا يهدأون ولا يخجلون. لذلك يعاود المؤمن المنتصر الصلاة. لقد لجأ إلى باب الرب عندما هاجم الشرير بابه، فانصرف الشرير مؤقتاً، ولكن المؤمن بقي واقفاً أمام باب الرب طالباً نجاةً جديدة، وعينه تنظر بشكرٍ إلى النجاة السابقة! وسيظل المؤمن يصلي صلاة طلبٍ حتى آخر يوم في حياته، وهو يذكر قول المسيح: «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو 15: 5).

2 - سيظل المؤمن يشهد لنعمة الله: فهو يعلم أن أبواب الجحيم لن تقوى عليه (مت 16: 18) بفضل الرب الذي يرفعه من أبواب الموت، فيشهد للرب ويسبّحه في أبواب المدينة، مبتهجاً بخلاصه. رفعه الرب من أبواب الموت ليرفع هو غيرَه إلى أبواب الحياة. والله ينجينا لنخبر بفضائله، فيجد غيرُنا طريقَ النجاة معنا.

3 - هناك مفارقة بين «أبواب الموت» (آية 13) **و«أبواب ابنة صهيون»** (آية 14). يقول المرنم: «يا رافعي من أبواب الموت» ثم يقف في «أبواب ابنة صهيون». باب الموت مظلم وحزين، أما باب العبادة فهو باب الحياة والاطمئنان والنجاة والفرح والنور، بفضل نعمة الرب.

نقل الرب المرنم من الظلمة إلى النور ومن الموت إلى الحياة (يو 5: 24 و1يو 3: 14) فأخذ المرنم يحدّث بكل تسابيح الرب. وهذا ما يحدُث مع كل من يرجع إلى الرب تائباً، كما رجع الابن الضال، فقال أبوه عنه: «ابني هذا كان ميّتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجد» (لو 15: 24، 32).

ثانياً ـ الله قضى بالعدل على الشرير
(آيتا 15، 16)

«تورَّطت الأمم في الحفرة التي عملوها. في الشبكة التي أخفوها انتشبت أرجلهم. معروفٌ هو الرب. قضاءً أمضى. الشرير يَعْلَق بعمل يديه» (آيتا 15، 16).

قضى الشرير على نفسه، وقضى الله عليه. تورَّط في الحفرة التي حفرها، ووقع في الفخ الذي أخفاه. وهكذا تحقق أن الرب «أمضى قضاءً» ونفَّذه، فهو معروف بعدالة أحكامه. أظهر الرب نفسه وأصدر القضاء، وعَلَق الشرير وأُخذ بما ارتكبت يداه.

ويقول المرنم: «معروفٌ هو الرب». معروف بمحبته وعدله. المحبة لمن يتوب، والعدالة لمن يتمادى في طريق شرّه ويرفض التوبة! وما أجمل ما قال الرسول بولس: «لأعرفه وقوة قيامته، وشركة آلامه متشبِّهاً بموته، لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات. ليس أني قد نلتُ، أو صرتُ كاملاً، ولكني أسعى، لعلي أدرك الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع» (في 3: 10-12).

وهنا نقرأ «ضرب الأوتار. سلاه». وهذه تعليمات لقائد جوقة الترنيم: فضاربو الأوتار يعزفون بقوة، ثم يسود سكوت (وهذا غالباً معنى كلمة سلاه)، ليجد المرنمون والسامعون فرصة للتفكير في المعاني السامية التي وردت في المزمور، ليعودوا يسمعون من جديد أن الله هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد، نجَّى وسينجّي.

ثالثاً ـ الله سيقضي بالعدل وينجّي المؤمن
(آيتا 17، 18)

الله الذي نجّى ورنمنا له، وتوقَّفنا لنفكر في صلاحه، سينجّي. «الأشرار يرجعون إلى الهاوية، كل الأمم الناسين الله» (آية 17). الأمم أموات لأنهم ينسون الله (راجع آيتي 7، 8). ولكن «لا يُنسى المسكين إلى الأبد. رجاء البائسين لا يخيب إلى الدهر» (آية 18). أنت دائماً في ذاكرة الرب (راجع آيتي 9، 10).

رابعاً ـ صلاة
(آيتا 19، 20)

في الآيتين الأخيرتين صلاة فيها طلبتان:

1 ـ أن تنتصر مملكة الله: «قُم يا رب، لا يعتزّ الإنسان. لتُحاكَم الأمم أمامك» (آية 19). يظن الخاطئ أن الله خلق العالم ونسي أمره، فيتصرَّف وكأنه سيد الموقف، ويعتزّ بقوته وسلطانه. وقد يمارس قادة الدول أسلوب القمع والظلم والديكتاتورية وينسون أن فوق العالي عالياً يلاحظ، والأعلى فوقهما (جا 5: 8). والمرنم يطلب من الله أن يضع للظلم حدّاً، وأن ينصر العدل.

2 ـ أن يتوب الأشرار: «يا رب، اجعل عليهم رعباً ليعلم الأمم أنهم بشر» (آية 20). يرعبهم الله وهم يخطئون، فيدركون قدرة الله عليهم. ربما كان الرعب رعب مرض، أو رعب هزيمة، أو رعب تهديد من قوة أعلى. وإذ يرتعبون يدركون أنهم بشر مخلوقون من التراب وإلى التراب يعودون، فيتوبون ويرجعون إلى الله. ويقول الرب: «إني لا أُسرّ

بموت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة. فلماذا تموتون؟» (حـــز 33: 11).

اَلْمَزْمُورُ الْعَاشِرُ

1يَا رَبُّ، لِمَاذَا تَقِفُ بَعِيداً؟ لِمَاذَا تَخْتَفِي فِي أَزْمِنَةِ الضِّيقِ؟ 2فِي كِبْرِيَاءِ الشِّرِّيرِ يَحْتَرِقُ الْمِسْكِينُ. يُؤْخَذُونَ بِالْمُؤَامَرَةِ الَّتِي فَكَّرُوا بِهَا. 3لأَنَّ الشِّرِّيرَ يَفْتَخِرُ بِشَهَوَاتِ نَفْسِهِ، وَالْخَاطِفُ يُجَدِّفُ، يُهِينُ الرَّبَّ. 4الشِّرِّيرُ حَسَبَ تَشَامُخِ أَنْفِهِ يَقُولُ: «لاَ يُطَالِبُ». كُلُّ أَفْكَارِهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ. 5تَثْبُتُ سُبُلُهُ فِي كُلِّ حِينٍ. عَالِيَةٌ أَحْكَامُكَ فَوْقَهُ. كُلُّ أَعْدَائِهِ يَنْفُثُ فِيهِمْ. 6قَالَ فِي قَلْبِهِ: «لاَ أَتَزَعْزَعُ. مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ بِلاَ سُوءٍ». 7فَمُهُ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَغِشّاً وَظُلْماً. تَحْتَ لِسَانِهِ مَشَقَّةٌ وَإِثْمٌ. 8يَجْلِسُ فِي مَكْمَنِ الدِّيَارِ، فِي الْمُخْتَفَيَاتِ يَقْتُلُ الْبَرِيءَ. عَيْنَاهُ تُرَاقِبَانِ الْمِسْكِينَ. 9يَكْمُنُ فِي الْمُخْتَفَى كَأَسَدٍ فِي عِرِّيسِهِ. يَكْمُنُ لِيَخْطَفَ الْمِسْكِينَ. يَخْطَفُ الْمِسْكِينَ بِجَذْبِهِ فِي شَبَكَتِهِ 10فَتَنْسَحِقُ وَتَنْحَنِي وَتَسْقُطُ الْمَسَاكِينُ بِبَرَاثِنِهِ. 11قَالَ فِي قَلْبِهِ: «إِنَّ اللهَ قَدْ نَسِيَ. حَجَبَ وَجْهَهُ. لاَ يَرَى إِلَى الأَبَدِ».

12قُمْ يَا رَبُّ. يَا اللهُ ارْفَعْ يَدَكَ. لاَ تَنْسَ الْمَسَاكِينَ. 13لِمَاذَا أَهَانَ الشِّرِّيرُ اللهَ؟ لِمَاذَا قَالَ فِي قَلْبِهِ: «لاَ تُطَالِبُ»؟ 14قَدْ رَأَيْتَ. لأَنَّكَ تُبْصِرُ الْمَشَقَّةَ وَالْغَمَّ لِتُجَازِيَ بِيَدِكَ. إِلَيْكَ يُسَلِّمُ الْمِسْكِينُ أَمْرَهُ. أَنْتَ صِرْتَ مُعِينَ الْيَتِيمِ. 15اِحْطِمْ ذِرَاعَ الْفَاجِرِ، وَالشِّرِّيرُ تَطْلُبُ شَرَّهُ وَلاَ تَجِدُهُ. 16الرَّبُّ مَلِكٌ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. بَادَتِ الأُمَمُ مِنْ أَرْضِهِ. 17تَأَوُّهَ الْوُدَعَاءِ قَدْ سَمِعْتَ يَا رَبُّ. تُثَبِّتُ قُلُوبَهُمْ. تُمِيلُ أُذُنَكَ 18لِحَقِّ الْيَتِيمِ وَالْمُنْسَحِقِ، لِكَيْ لاَ يَعُودَ أَيْضاً يُرْعِبُهُمْ إِنْسَانٌ مِنَ الأَرْضِ.

يا رب، لماذا تقف بعيداً؟

هذا المزمور بلا عنوان، لا نعرف من كتبه، ولا مناسبة كتابته، فهو ترتيلة كل إنسان متعَب مضطهَد في كل عصر. إنه صرخة نفس تعاني وتسأل الله: لماذا كل هذا الضيق؟ لماذا تترك الشرير يفعل ما يشاء؟ ثم تصرخ طالبة الإنقاذ والخلاص. وقد جاء هذا المزمور في الترجمة السبعينية وفي ترجمة القديس إيرونيموس المعروفة بـــ «الفولجاتا» تكملة للمزمور التاسع، ولكن التوراة العبرانية اعتبرته مزموراً مستقلاً.

في هذا المزمور نجد:

أولاً: المضطهد يسأل: لماذا؟ (آيتا 1، 2)

ثانياً: صفات الشرير وأعماله (آيات 3–11)

ثالثاً: المضطهد يصلي (آيات 12–15)

أولاً ـ المضطهد يسأل: لماذا؟

(آيتا 1، 2)

كثيراً ما يظن المؤمن المتألم أن الله يقف بعيداً وكأنه يختفي، فلم يعُد عوناً في الضيقات. ولا شك أن الصُحبة الإلهية هي أعظم مصدر للفرح، كما أن الشك فيها يزعج النفس. وفي حالة الانزعاج هذه صرخ المرنم: «يا رب، لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟ في كبرياء الشرير يحترق المسكين. يؤخذون بالمؤامرة التي فكروا بها» (آيتا 1، 2).

1 – ليس هذا سؤال حب استطلاع: فالمرنم لا يريد أن يعرف أسرار الإرادة الإلهية، لأنه لا يستطيع أحد أن يدرك كل شيء عنها. قال سليمان الحكيم: «مجد الله إخفاء الأمر، ومجد الملوك فحص الأمر» (أم 25: 2). فالملك الأرضي يريد أن يعرف كل شيء، أما الملك السماوي فإنه لفرط محبته لنا يخفي الأمور عنا حتى لا نضطرب.

2- ليس هذا سؤال تذمُّر: لأنه يثق أن الله هو الملك الذي يحبه، وله قصد صالح في كل ما يفعله أو يسمح بحدوثه. قد يقع الإنسان في مكان خطير بين بحرين، في سفينة تكاد تتفسخ من عنف الأمواج (أع 27: 41). لكن الرب يشجعه بقوله: «لا تخف» فإننا «نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده» (رو 8: 28). و«إن كان يجب تُحزنون يسيراً بتجارب متنوعة» (1بط 1: 6). «ولكننا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا» (رو 8: 37). «قولوا للصديق خير» (إش 3: 10).

3- ليس هذا سؤال يائس: فالمرنم يدرك أن الله حي وموجود، ولا بد سيخلص المستنجدين به. صحيحٌ أن الشرير يقول إن الله لا يرى ولا يطالب، لكن المرنم يقول إن عيني الرب مفتوحتان، وإن أذنيه مصغيتان. ولو لم يكن متأكداً من ذلك ما لجأ إلى الله يقول: «لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟».

4- لكن سؤال حائر يحب الرب: لماذا تقف بعيداً عن وقت الاحتياج؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟». وفي حزنه يقول: «في كبرياء الشر يحترق المسكين». ويطلب العدالة الإلهية إذ يُؤخذ الأشرار «بالمؤامرة التي فكروا بها». وهذه نتيجة طبيعية لكل شرير يحفر حفرة لغيره فيسقط فيها.

ثانياً _ صفات الشرير وأعماله

(آيات 3- 11)

تصف هذه الآيات شخصية الشرير وأعماله:

1- الشرير يفتخر بخطاياه: «لأن الشرير يفتخر بشهوات نفسه، والخاطف يجدِّف. يُهين الرب. الشرير حسب تشامخ أنفه يقول: لا يطالب. كل أفكاره إنه لا إله» (آيتا 3، 4). يزهو الشرير بأطماعه بدون خجل، ولا يحاول أن يخفيها، ويفتخر بأنه يحصل على كل رغباته، سواء توافقت سبُل الحصول عليه مع المشيئة الإلهية أو تعارضت! وهذا تجديف على الله سبحانه، يصفه النبي بالقول: «لأنهم رذلوا شريعة رب الجنود، واستهانوا بكلام قدوس إسرائيل» (إش 5: 24). الشرير حسب تشامخ أنفه يقول إن الله لا يطالب، وبخياله المريض يظن أنه لا يوجد إله يطالب بدفع أجرة خطيته. ولكن المكان الوحيد الخالي من الحضور الإلهي هو فكر الجاهل الذي يقول «ليس إله» (مز 14: 1). الله موجود يطالب بالدماء، لم ينسَ صراخ المسكين (مزمور 9: 12). ولا بد أن يعاني هذا الشرير بسبب شره وكبريائه.

2- الشرير يثق في قدراته: «تثبُت سبُله في كل حين. عالية أحكامك فوقه. كل أعدائه ينفُث فيهم. قال في قلبه: لا أتزعزع . من دور إلى دور بلا سوء» (آيتا 5، 6). عندما تتحقق مكائد الشرير ومقاصده يفتخر، ولا يخاف الله ولا يهاب إنساناً. ويتساءل النبي عن مثل هذا الشرير الواثق في قدراته: «لماذا تنجح طريق الأشرار؟ اطمأنَّ كل الغادرين غدراً. غرستهم فأصلوا. نموا وأثمروا ثمراً. أنت قريب في فمهم وبعيد عن كُلاهُم (قلوبهم)» (إر 12: 1، 2). ينفث الشرير في كل أعدائه بتجبُّر وكبرياء، كما يتوعَّد الذين يقدمون له النصيحة المخلصة، ويهاجم من يختلفون معه كما كان شاول الطرسوسي ينفث تهدُّداً وقتلاً على تلاميذ الرب (أع 9: 1). ومع أن أحكام الله عالية فوق الشرير إلا أنه لا يراها بسبب عمى قلبه، فيقول: لا أتزعزع. من دور إلى دور بلا سوء. وكأنه ضمن حاضره ومستقبله. إنه يردد قول المؤمن المعتمد على الرب الواثق في نعمته، ولو أنه يقوله واثقاً في قدراته وإمكانياته وموارده من مال وصحة وعائلة وعلم وعلاقات اجتماعية. ولما كان الله لا يعاقب الخاطئ فور ارتكاب خطيته، فإنه يظن أنه ناجٍ بشروره. مع أن الله يطيل أناته عليه ليتوبَه (رو 2: 4).

3- الشرير يظلم المسكين: (آيات 7-10)

(أ) يظلمه بالكلام ضده: «فمه مملوء لعنة وغشاً وظلماً. تحت لسانه مشقةٌ وإثم» (آية 7). كلام الغش والظلم في فم الشرير كلقمة حلوة يستمتع بها ويتذوقها بتلذُّذ. قال الحكيم وصفاً لمثل هذا الشرير: «فم الأشرار يبلع الإثم» (أم 19: 28). وقال أليفاز التيماني: «الشارب الإثم كالماء» (أي 15: 16). ويقدم الرسول بولس الصورة نفسها في رومية 3: 14.

(ب) يظلمه بالهجوم عليه: «يجلس في مكمن الديار. في المختفيات يقتل البريء. عيناه تراقبان المسكين» (آية 8). عن مثل هذا الشرير يقول النبي: «ويلٌ للمفتكرين بالبُطل، والصانعين الشر على مضاجعهم. في نور الصباح يفعلونه لأنه في قدرة يدهم. فإنهم يشتهون الحقول ويغتصبونها، والبيوت ويأخذونها، ويظلمون الرجل وبيته، والإنسان وميراثه» (ميخا 2: 1-3). ويقدم لنا سليمان الحكيم صورة للشرير قاطع الطريق في أمثال 1: 10-18.

(ج) يظلمه بالكيد له: «يكمن في المختفي كأسدٍ في عريسه (عرينه). يكمن ليخطف المسكين. يخطف المسكين بجذبه في شبكته» (آية 9).

(د) يظلمه بإذلاله: «فتنسحق وتنحني وتسقط المساكين ببراثنه (في قبضته) (آية 10). كل ضحايا الشرير من المساكين الذين لا يجدون من يدافع عنهم. لمثل هؤلاء جاء المسيح ببيانه الرسمي «روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأبشر المساكين.. » (لو 4: 18، 19).

4- الشرير يستمر في ضلاله: قال في قلبه: إن الله قد نسى. حجب وجهه، لا يرى إلى الأبد» (آية 11). لقد ارتكب الشر ولم يعاقبه الله فوراً. فظن أن الله يهمل، أو أنه نسي، أو أنه لا يرى. ولكن الله يقول: «أُعاقب.. القائلين في قلوبهم: إن الرب لا يُحسن ولا يُسيء» (صف 1: 12)

ثالثاً _ المضطهَد يصلي
(آيات 12-15)

1- في الصلاة طلب: (آية 12)

(أ) يطلب تحرُّك الرب: «قُم يا رب» (آية 12أ). قال الشرير إنه لا يتزعزع (آية 6) وهو لا شك مخطئ. ويطلب المرنم من الرب أن يبرهن له خطأه، بأن يقوم ويرفع يده وينصفه.

(ب) يطلب إنصاف الرب: «يا الله ارفع يدك» (آية 12ب). يظن الشرير إن يدي الرب مغلولتان وأنه لا يطالب بحقوق المظلومين (آية 4). ويطلب المرنم من الرب أن يرفع يده وينصفه، ويقول مع النبي: «استيقظي، استيقظي. البسي قوة يا ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القِدَم، كما في الأدوار القديمة» (إش 51: 9).

(ج) يطلب أن يذكره الرب: «لا تنْسَ المساكين» (آية 12ج). قال الشرير إن الرب ينسى وقد حجب وجهه، ولا يرى إلى الأبد (آية 11). ويطلب المرنم من الرب أن يذكره في مراحمه ولا ينساه لأنه مسكين.

2- في الصلاة تساؤل: «لماذا أهان الشرير الله؟ لماذا قال في قلبه (إنك يا رب) لا تطالب؟» (آية 13). لم يوجِّه الشرير إهانة للمرنم، لكنه وجهها للرب. وهو يتساءل مع النبي: «لِمَ تريني إثماً وتبصر جوراً؟» (حب 1: 3).

3- في الصلاة انتظار: قد رأيت، لأنك تبصر المشقَّة والغمَّ لتجازي بيدك. إليك يُسلّم المسكين أمره. أنت صرت معين اليتيم. احطِم ذراع الفاجر، والشرير تطلب شرَّه ولا تجده» (آيتا 14، 15). ينتظر المرنم أن يرى الله متاعبه، مع أن الشرير يقول إن الله لا يرى. لله عينٌ ترى حاجة أولاده، وله يد تنصفهم وتعاقب مضطهديهم. ولا يعتمد انتظار المؤمن على الأشياء المنظورة، بل على صلاح الله الذي لا يعتريه تغيير. وينتظر المرنم أن يفعل الرب أمراً، فيجازي البار حسب بره والشرير حسب شره، ويمد يده الإلهية ويتدخل لصالحه، وهذا الانتظار الواثق يشجع المرنم المسكين على تسليم أمره لصانع الحق والعدل، فالرب معين اليتيم، به «يُرحَم اليتيم» (هو 14: 3). وعندما تحاصر المظالم المؤمن نقول له «قولوا للصديق خير، لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم. ويلٌ للشرير شر، لأن مجازاة يديه تُعمل به» (إش 3: 10، 11)

وينتظر المرنم أن يعاقب الله الشرير حتى يعجز عن إيقاع الأذى بالأبرياء، ويطلب أن يحطم الرب ذراع الفاجر، فيتوقف فجوره. ثم يطلب أن يتوقف شر الشرير فيكون كأنه لم يكن. «تطلب شره (لتعاقبه) فلا تجده».

رابعاً _ المضطهد يطمئن
(آيات 16-18)

1- يطمئن لأن الرب صاحب السلطان: «الرب ملك إلى الدهر والأبد. بادت الأمم من أرضه» (آية 16). «لأن الرب يعلم طريق الأبرار، أما طريق الأشرار فتهلك» (مز 1: 6). وقال المسيح: «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت 28: 18) ثم أصدر تكليفه لتلاميذه أن يتلمذوا جميع الأمم، فتنتهي «أمميَّتهم» وبُعدهم عن الله، وتنفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور،ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بالمسيح الفادي المخلص غفران الخطايا ونصيباً مع المقدَّسين (أع 26: 18). أما الذين يرفضون الرجوع فيهلكون في خطاياهم.

لقد أقام الرب الحكام ليقضوا للمظلومين ويعاقبوا الظالمين، ولا بد أن يفعل هو الشيء نفسه، وهو «يعزل ملوكاً وينصب ملوكاً» (دا 2: 21) لأنه وحده صاحب السلطان في الأرض.

2- يطمئن لأن الرب يسمع: «تأوُّه الودعاء قد سمعتَ يا رب. تثبّت» (آية 17أ، ب). إنه لا يسمع صراخ الوديع فقط، لكنه يسمع حتى تأوُّه وأنين قلبه، فهو سامع الصلاة الذي إليه يأتي كل بشر. وهو يُميل أذنه إليه، كما تُميل الأم أذنها إلى طفلها وتنحني عليه بحب وتحنو عليه بعطف، بسبب صغر قامة الصارخ وصغر نفسه. ثم يثبت قلب الخائف في الإيمان بمحبة الرب ويمنحه نعمة الاعتماد عليه، فلا يعود يرتاب في عدالة الله.

3- يطمئن لأن الرب يُنصف: «تُميل أذنك لحق اليتيم والمنسحق، لكي لا يعود أيضاً يرعبهم إنسان من الأرض» (آيتا 17ج و18). وهو اطمئنان يشمل الحاضر والمستقبل، من عند الذي يقول: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت 28: 20). وهو إنصاف من «إنسان من الأرض» مخلوق من تراب، ولا بد يرجع إلى التراب. ويقول الله لجماعة المؤمنين: «أنا أنا هو معزيكم. من أنتِ حتى تخافي من إنسان يموت، ومن ابن الإنسان الذي يُجعل كالعشب؟» (إش 51: 12)

إجابات للسؤال: لماذا؟

في نور العهد الجديد نقدم بعض الإجابات للتساؤل الذي افتتح به المرنم مزمور: «يا رب، لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟».. والإجابة الصحيحة دائماً هي أن الله يُجري كل شيء لخيرنا، حتى أننا نفتخر في الضيقات «عالمين أن الضيق ينشئ صبراً، والصبر تزكية (الامتحان الذي يختبر نوعية المؤمن)، والتزكية رجاء، والرجاء لا يُخزي، لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» (رو 5: 3-5).

1- يستخدم الله الضيق لخيرنا الروحي: لأنه يجعلنا نتذكر خطايانا وبُعدنا عن طاعة الله، فنفحص أمانتنا معه ومدى عمق علاقتنا به. لقد ألقى الملك نبوخذنصر الفتية الثلاثة في أتون النار، ففك الله قيودهم، فأخذوا يتمشون محلولين منها، ولم تكن للنار قوة على أجسامهم، وشعرة من رؤوسهم لم تحترق، وسراويلهم لم تتغير، ورائحة النار لم تأتِ عليهم (دانيال 3: 23، 25، 27). ونحن عندما نمر في ضيقة قد نصرخ: «لماذا تقف بعيدا؟» ولكننا ندرك أن الله لن يتركنا، بل يعمل على ما يقطع القيود التي تربطنا بالخطية، فنلقي اعتمادنا عليه.

2- يستخدم الله الضيق ليخلص النفوس: يجذبها إلى حظيرة محبته. قاسى المسيح من الخطاة ليخلصهم، فقال على الصليب: «إلهي إلهي، لماذا تركتني» (مت 27: 46). ولكن هذه المعاناة تممت الخلاص للبشر. وأنت عندما تتضايق، تدرك أن الله معك في الضيق، وتعرف أن كل الأشياء تعمل معاً للخير لأنك تحب الله، فتعتمد على نعمته، وتكون في سلام، يراه البعيدون عن الله، فيسألونك عن سبب الرجاء الذي فيك، فتجيبهم، وبهذا تربحهم لمن منحك سلامه الذي يفوق كل عقل. وهذا مما حدث مع الفتية الثلاثة في الأتون، فقال الملك: «ليس إلهٌ آخر يستطيع أن ينجي هكذا» (دا 3: 29).

3- يستخدم الله الضيق لمجده: لأن الضيق يخلق منا أشخاصاً أكثر نضوجاً. المؤمن الذي يتألم كأيوب ويثبت في محبته لله، يبرهن على أنه لم يعبد الله لخيرٍ منحه له، بل لأن الله يستحق العبادة والحب، سواء منح أم منع. «الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً» (أي 1: 21). «في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا» (رو 8: 37) ويرى البعيدون عن الله فينا أن محبتنا لله تقبلت منه بالشكر كل ما أعطى، عالمين صدق وعده: «لا أهملك ولا أتركك، حتى أننا نقول واثقين: الرب معين لي فلا أخاف. ماذا يصنع بي إنسان؟» (عب 13: 5، 6).

وما أجمل ما قال جيرمي تيلور: «الله رحيم وحكيم، فلا يسمح بكل هذا الألم أن يقع على القديسين إلا لأن يكون الألم مدرسة للفكر، ومشتلاً للفضيلة، وتدريباً للحكمة، وتمريناً على طول الأناة، وإعداداً لإكليل، وبوابة للمجد».